المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد السادس عشر، يونيو ٢٠١٨ م

التوقيعات في النثر الفني في العصور الاسلامية والعباسية

الدكتورة راحيلة خالد قريشى *
الدكتورة الطاف حسين لنكريال **

Abstract

Signing the official documents has always been an art in the history of Arabs and Arabic Literature of Islamic and Abbasside regimes. We know very well about the seal (Muhr e Nabuwat) of Holy Prophet (PBUH). Muslim caliphs and other fellow officials of their government used to sign the documents presented before them for any purpose like approval or disapproval regarding official matters or for process of state affairs. While signing the document, they commonly used to write any small verse (Ayyah) from Holy Quran or some part of Hadith of Holy Prophet (PBUH), any quotation based upon Hikmah, related with the theme of the document on the concerned documents. Even they established a center known as "Bait-ul-Hikmah" to promote literary and scholarly attitude of their people during their regime. Highly learned people and experts in Arabic language, Islamic sciences and calligraphy were appointed in that center. In this Article the style of signing the documents has been discussed in detail which is called, "Al-Touqi'at." It represents literary taste of Muslim rulers, and their love for knowledge.

كما نعلم أنه يزخر الأدب العربي في العصور الإسلامية و العباسية بصنوف من الآداب والفنون وخاصة ازدهرت فيه النثر الفني من الفنون النثرية الأدبية .التوقيعات أيضا فن أدبي من فنون النثر العربي الذي ارتبط بالكتابة منذ نشأتها وشيوعها، وقد قدمت في هذه المقالة بحثا

* أستاذة مشاركة، ورئيسة قسم اللغة العربية، الجامعة الاسلامية بهاولفور، باكستان
** أستاذ مساعد، قسم الدراسات الاسلامية، الجامعة الاسلامية بهاولفور، باكستان

موجزا ليكون مدخلا إلى دراسة هذا الفن لأنه لم تاخذ حظا وافرا من البحث والدراسة، وهذه الناحية للنثر الفني لا يزال مجهولا عند الطلاب والدارسين للأدب العربي قبل أن نتحدث عن مظاهرها يهمّ لنا أن نعرف معانيها اللغوية والاصطلاحية .

التوقيع في اللغة هو التأثير، يقال: وقَّعَ الدَّبرُ [1] ظهرَ البعير إذا أثر فيه، وكذلك الموقّع (كاتب التوقيع) يؤثر في الخطاب، أو الكتاب الذي كتب فيه حسّا أو معنى [2] .

وقيل: إن التوقيع مشتقٌ من الوقوع؛ لأنه سبب في وقوع الأمر الذي تضمنه، أو لأنه إيقاع الشيء المكتوب في الخطاب أو الطلب، فالتوقيع كذا بمعنى إيقاعه [3] .

قال الخليل[4] : » التوقيع في الكتاب إلحاقٌ فيه بعد الفراغ منه. واشتقاقه من قولهم: وقّعْتُ الحديدة بالميقعة، وهي المطرقة: إذا ضربتها، وحمار موقَّع الظهر: إذا أصابته في ظهره دَبَرَةٌ. والوقيعة: نُقْرَةٌ في صخرة يجتمع فيها الماء، وجمعها: وقائع. قال ذو الرمة:

ونلنَا سِقَاطًا من حديثٍ كأنَّـهُ جَنىَ النحل ممزوجًا بماءِ الوقائعِ[5]

فكأنه سُمِّى توقيعًا؛ لأنه تأثير في الكتاب، أو لأنه سببُ وقوع الأمر وإنفاذه، من قولهم: أوقعت الأمر فوقع [6] « .

وأميل إلى ترجيح السبب الأخير؛ لأن التوقيع يتضمن إجراءًا يلزم تنفيذه.

وقال ابن الأنباري: »توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة، ويحذف الفضول.وهو مأخوذ من توقيع الدَّبَرِ ظهر البعير؛ فكأن الموقّع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه « [7] .

وقد اكتسبت التوقيعات في الإسلام معنىً اصطلاحيًا يرتبط بالمعنى اللغوي الذي ذكرناه، فأصبحت تستعمل لما يوقعه الكاتب على القضايا أو الطلبات المرفوعة إلى الخليفة أو السلطان أو الأمير ، فكان [8] الكاتب يجلس بين يدي الخليفة في مجالس حكمه، فإذا عرضت قضية على السلطان أمر الكاتب أن يوقع بما يجب إجراؤه، وقد يكون الكاتب أحيانًا السلطان نفسه.

يقول البطليوسي (44- 521هـ) في تعريف التوقيع: (وأما التوقيع فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو مَنْ له أمر ونهي في

أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عَرْضه، بإيجاب ما يُسْأل أو منعه، كقول الملك: ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح. وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب: لِتُرَدَّ على هذا ظُلامته. أو لينظر في خبر هذا، أو نحو ذلك) [9].

ويقول ابن خلدون (732 – 808هـ) [10]:

» ومن خُطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه. فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه « .

تطور دلالتها

تطوَّر مفهوم التوقيعات في العصر العباسي، واكتسب معنى أدبيًا، فأصبحت تطلقُ على تلك الأقوال البليغة الموجزة التي يكتبها المسؤول في الدولة، أو يأمر بكتابتها على ما يرفع إليه من قضايا أو شكايات، متضمنة ما يجب اتخاذه من إجراءات نحو كل قضية أو مشكلة، وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في الوقت الحاضر.

وفي العصور الوسطى أضيف إلى التوقيعات دلالة جديدة مع بقاء دلالتها الأدبية الشائعة في العصر العباسيّ، حيث أصبحت تطلق على الأوامر الرسمية التي يصدرها السلطان أو الملك؛ لتعيين والٍ، أو أمير، أو وزير، أو قاضٍ، أو حتى مدرس، وامتازت بطولها، والإسهاب في ذكر الحيثيات والدواعي المسوغة للتعيين؛ حتى تجاوز بعضها أربع صفحات، وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى نماذج كثيرة منها [11] ولا يتسع المجال لذكر شيء منها.

والتوقيعات بهذا المفهوم لا تُعَدُّ توقيعات أدبية لافتقادها عنصري البلاغة والإيجاز، ولا تدخل ضمن هذا البحث، وعَدُّها من باب الكتابة الديوانية والنثر التاريخي أولى وأصح.

ثم تحول معناها بعد ذلك إلى علامة اسم السلطان خاصة التي تذيل بها الأوامر والمراسيم والصكوك كالإمضاء عندنا [12]، ثم توسع في معناها فأصبحت تدل على تأشيرة الاسم، وهي كتابته بتلك الهيئة الخاصة التي تقابل في الإنجليزية لفظة (Signature).

أنواع التوقيعات الأدبية

بعد أن تحدثنا عن التطور الدلالي للفظة (التوقيع)، يحسن أن نتحدث بإيجاز عن أنواع التوقيعات الأدبية، التي نلاحظ – من خلال استقرائها وتتبعها في كتب الأدب والتراث أنها لا تخرج عن الأنواع التالية:

1- قد يكون التوقيع آيةً قرآنيةً تناسب الموضوع الذي تضمنه الطلب، أو اشتملت عليه القضية.

من ذلك ما ذكر[13] أن أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي وزير معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلمي [14] كان قبل اتصاله بمعز الدولة وتقلده منصب الوزارة يعاني من قلة ذات اليد وشدة الفقر وضيق الحال، وكان يشكو رمدًا في عينيه لا يفارقه، وسافر في بعض الأيام مع رفيق له أديب من أهل الأسفار والتجوال [15] ، ولكنه لقي في سفره هذا مشقة ونصبا، فلا زاد معه ولا مال، ونزل مع رفيقه في بعض الأماكن واشتهى اللحم، فلم يجد ثمنه، فأنشد ارتجالاً ورفيقه يسمع:

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشْتَريهِ	فهذا العيشُ مالا خيرَ فيهِ
ألا مَوْتٌ لذيذُ الطعمِ يأتِي	يُخلِّصُني من العيشِ الكريهِ
إذا أبصَرْتُ قبرًا من بعيدٍ	ودِدْتُ لو أنَّني مما يليهِ
ألا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍّ	تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيهِ

فتأثر رفيقه بالأبيات ورثى لحاله، ورق له، فاشترى له بدرهم لحمًا، وأعده وقدمه إليه، وتفرقا.

ثم تتابعت الأيام، وتغيرت الأحوال، وحسنت حال المهلبي وتولى الوزارة ببغداد لمعز الدولة البويهي، وضاقت الحال برفيقه في السفر الذي اشترى له اللحم، وحقق له رغبته، وآل به الأمر إلى أن جلس على بساط الفقر والفاقة، وبلغه تولي المهلبي الوزارة، فشد الرحال وقصده في بغداد، فلما بلغه كتب إليه رُقْعَة تتضمن أبياتًا، منها:

ألا قُلْ للوزير فَدتْه نَفْسِي	مَقَالَ مُذَكِّرٍ ما قد نسيهِ
أتذكرُ إذ تقول لضنْكِ عَيْشٍ:	(ألا مَوْتٌ يباعُ فأشتريهِ)

فلما قرأ المهلبي الأبيات تذكر صحبة رفيقه، وفضله عليه، وهزته أريحية الكرم ورعاية حق الصحبة، وردّ الفضل لأهله والمعروف لمستحقيه.

إنّ الكرامَ إذا ما أسهَلُوا ذَكَروا مَنْ كان يألفُهمْ في المنزل الخَشِ [16]

فأمر له بسبع مئة درهم، ووقّع في رقعته قوله تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء} [17].

ثم دعاه وأكرمه، وقلده عملاً مناسبًا يرتزق به [18].

والتوقيع الذي وقعه المهلبي على رقعة صاحبه (الآية القرآنية الكريمة) يبدو مناسبا تمامًا لفحوى القصة ومضمونها، أعطاه صديقه درهما في وقت العسر والشدة، فأعطاه هو سبع مئة درهم في وقت السعة والرخاء تحقيقًا لما في الآية الكريمة.

ومن ذلك [19] ما كتب به عامل إرمينية إلى المهدي الخليفة العباسي يشكو إليه سوء طاعة الرعية، فوقع المهدي في خطابه قوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[20] والتوقيع بألفاظ القرآن حسن في الجدّ من الأمور، محظور في المُزْح والمطايبة .[21]

2- وقد يكون التوقيع بيت شعر. من ذلك [22] ما كتب به قتيبة بن مسلم الباهلي إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يتهدده بالخلع، فوقع سليمان في كتابه:

زعمَ الفرزدقُ أن سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا أبشرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ [23]

وكتب [24] ألفونس السادس ملك قَشْتالة إلى يوسُف بن تاشِفين أمير المرابطين في الأندلس يتوعده ويتهدده، فوقع يوسف في كتابه بيت أبي الطيب المتنبي:

ولا كُتُبَ إلا اَلْمُشَرفِيَّةُ والقنَا ولا رُسُلٌ إلا الخميسُ الْعَرمْرَمُ [25]

3- وقد يكون مثلاً سائرًا. من ذلك ما وقع[26]به علي بن أبي طالب رضي الله عنه – إلى طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه - : » في بيته يؤتى الحكم) [27].

ومن ذلك أيضًا ما وقّع به يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقد أُخبر يزيد أنه يتلكأ في مبايعته بالخلافة: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت .[28]

4- وقد يكون التوقيع حكمة، من ذلك ما وقع به السفاح الخليفة العباسي الأول في رقعة قوم شكوا احتباس أرزاقهم: » من صبر في الشدة شارك في النعمة «[29].

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى الخليفة المأمون يعتذر إليه مما بدر منه من خروجه عليه، ومطالبته بالخلافة، فوقع المأمون في كتابه: » القدرةُ تُذْهِبُ الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله «.[30]

5- وقد يكون التوقيع غير ذلك، رفعت إلى يحيى بن خالد البرمكي رسالة ركيـكة العبارة، كتبت بخط جمـيل فوقع: » الخط جسمٌ روحه البلاغة، ولا خير في جسمٍ لا روحَ فيه [31]

ووقع ابنه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي لبعض عماله: » قد كَثُرَ شاكوكَ، وقل شاكروك، فإما عَدَلت، وإما اعتـزلت «[32].

متى وجدت التوقيعات في الأدب العربي؟

التوقيعات فن أدبي نشأ في حضن الكتابة، وارتبط بها، ولذلك لم يعرف عربُ الجاهلية التوقيعات الأدبية ولم تكن من فنون أدبهم.[33]

ولعل أقدم ما أثر من توقيع في تاريخ الأدب العربي ما كتب به أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – إلى خالد بن الوليد – رضي الله عنه – حينما بعث للصديق خطابًا من دومة الجندل يطلب أمره في أمر العدو، فوقع إليه أبو بكر: ادن من الموت توهبْ لك الحياة [34].

ثم شاعت التوقيعات في عهد عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، لشيوع الكتابة، وامتد هذا الشيوع بصورة أوسع في عصر بني أمية.

ولذلك نلحظ أن التوقيعات فن أدبي نشأ في عصر صدر الإسلام، وليس صحيحًا ما ذهب إليه بعض مؤرخي الأدب العربي من أن التوقيعات فن أدبي عباسي، أخذه العباسيون من الفرس.[35]

في العصر العباسي

والحقّ أن التوقيعات الأدبية لم يكتب لها حظٌ من الذيوع والانتشار إلا في العصر العباسيّ، وذلك حينما ازدهرت الكتابة الفنية، وتعددت أغراضها، وحلت محل الخطابة في كثير من شؤون الدولة وقضاياها، وأصبح الكاتب البليغ مطلبًا من مطالب الدولة تحرصُ عليه وتبحث عنه، لتسند إليه عمل تحرير المكاتبات، وتحبير الرسائل في دواوينها التي تعدّدت نتيجة لاستبحارها، واتساع نطاقها، وكثرة ما يجبى من الخراج من الولايات الإسلامية الكثيرة المتباعدة، وأصبح لا يحظى بالوزارة إلا ذوو

الأقلام السيالة من الكتاب والبلغاء المترسلين كالبرامكة، والفضل بن الربيع، والفضل والحسن ابني سهل،وغيرهم من الكتاب الذين جمعوا بين الوزارة والكتابة الأدبية البليغة. وقد ألم بكثير من أخبارهم وآثارهم كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبدالله محمد ابن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة 331هـ، وكتاب تحفة الوزراء المنسوب لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي المتوفى سنة 429هـ. بل إن الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول (132 – 232هـ) كانوا يطّلعون على ما يرد إليهم من كتب ورسائل فيوقعون عليها، وصدرت عنهم توقيعات بليغة وصل إلينا منها قدر لا بأس به [36].

وفي العصر العباسي الثاني (232 – 334هـ) والثالث (334 – 447هـ) شاعت التوقيعات على أقلام عدد من الكتاب والوزراء المشهورين من ذلك ما ذكره الثعالبي [37] أن الصاحب بن عباد (326 – 385هـ) رفع إليه بعضهم رقعة يذكر أن بعض أعدائه يدخل داره فيسترق السمع، فوقع فيها: » دارنا هذه خان، يدخلها مَنْ وفى ومن خان . وكتب إليه إنسان رقعة أغار فيها على رسائله، وسرق جملة من ألفاظه، فوقع فيها: » هذه بضاعتنا ردت إلينا [38]ووقع في رقعة استحسنها {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ} [39] .

ورفع صاحب خراسان إلى المنصور رسالة، بدا للخليفة منها أنه أساء في التصرف، فوقع عليها بقوله "شكوت فأشكيناك،عتبت فأعتبناك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة فالخليفة أبو جعفر المنصور اشتهر عنه سعة الأدب، والعقل الراجح، وعمق البصيرة، وحسن السيرة، وكان يختار حكام الولايات من الدولة العباسية، ممن عرفوا بحصافة الفكر، وفصاحة اللسان، والأمانة في العمل والقدرة في التعامل مع الناس، فلما جاءه والي خراسان يشتكي الرعية هناك، سمع شكواه، وبيان دعواه، فانتصر له بمعاقبة المخالفين وحين أظهر عتبه على الخليفة بأنه يريد المزيد من القوة والحزم، وتطاول في باعه على عامة الناس، لم يسمع له الخليفة وبين له سوء حاله، وعدم قدرته على مواصلة الحكم بمنتهى الإيجاز والتوقيع السابق، ثم بشره بخلعه عن الحكم.

وكتب إليه عامله بمصر، يشكو من نقصان النيل، فوقع المنصور على الكتاب وقال: "طهّر عسكرك من الفساد، يُعْطِك النيل القياد"..

ومعروف أن مصر تعتمد على النيل في ري أراضيها، وخصب مزروعاتها، حتى إن فيضان النيل يأتي بالخير العميم، وري الأراضي وجلب الطمي –الغني والصالح للمزروعات فكون أراضي الدلتا التي تعتبر إلى الآن من أخصب بقاع العالم قاطبة، ربط بين حال الناس وما بهم من نعيم، وبين ما هم عليه من أعمال، فبين الإسلام "ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم" الأنفال 53 .فانحباس الأمطار، وغلاء الأسعار، وانتشار المجاعات جميعها امتحان من الله وإنذار لهؤلاء الناس بأن يحسنوا أعمالهم قبل أن ينالهم عقاب الله في الدنيا والآخرة.. فعندما شكا حاكم مصر نقصان مياه النيل، بادره المنصور على الفور، قد يكون أعمال العساكر السبب في ذلك، فطلب منه على الفورتطهيرالعساكرمن الفساد وإصلاح أعمالهم لانفراج أحوالهم .وربط المنصور بين سوء الحال، ونقصان مياه النيل، وبين فساد العساكر لذاك الحاكم، وهذا تلميح للحاكم بظلم عساكره وفساد حكمه .ورفعت إلى المهدي قصة رجل حبس في دم فوقع فيها بقوله: "ولكم في القصاص حياة" البقرة 179 .ومع أن هذا التوقيع اقتباس من القرآن الكريم إلا أنه اقتباس جاء من المهدي كأنه إقرار لحكم وضعي يتفق مع حكم إلهي .فمن أباح دم الناس واستحل حرماتهم، أباح الله دمه، واستحق القصاص، لأن في القصاص حياة لمجتمعات الأمة التي تنعم بالأمن والاستقرار، بل إن هذا الحكم لا يدركه إلا أولو الألباب، وهم أصحاب العقول الكبيرة، الذين يتدبرون في هذا القصاص منع تسرب الجريمة وإفشائها، وبالتالي فإن هذا القصاص هو حياة الآمنين في المجتمعات السلمية.

جاء توقيع المهدي وهو من خلفاء العصر الذهبي العباسي- جاء كأنه مصادقة الخليفة على حكم وضعي يتمشى مع حكم إلهي، فهو بمثابة تطبيق لشريعة الله في أرضه .كلمات موجزة ولكنها تتضمن معان عميقة، لا يدركها إلا أصحاب العقول الكبيرة.

وبعث إليه عامل أرمينية، يشكو إليه سوء طاعة الرعية، فوقع إليه بقوله: "خذ العفو وأمر بالعرف أعرض عن الجاهلين" فهذا الإيجاز وإن كان اقتباساً من القرآن الكريم، إلا أنه يضع الحلول للمسائل التي شكا منها عامل أرمينية، وهي باختصار شديد يبين به المهدي أن سوء ما شكا به حاكم أرمينيا، سببه حرفية الحكم، وحيفه في تطبيق النظام، وعدم المرونة في تسيير دفة الحكم، وهذا أصبح علماً بذاته، ومهما اجتهد بهذا العلم، تبقى هناك أمور كأنها قواعد أخلاقية لإدارة الشعوب ومنها- العفو عند

المقدرة، فليس المهم المحاسبة على الأخطاء، ولكن الأهم من ذلك، الوقاية من الوقوع في هذه الأخطاء، والعفو عن المسيء، واستئصال الإساءة من قلبه، فلا يعود إليها. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإعراض عن الجاهلين، من شيم النفوس العزيزة والأخلاق الفاضلة، والقيم النبيلة – والتي تمثل خلق المسلم- وبمثل ذلك تساس الرعية .وكلنا نعرف شعرة معاوية ابن أبي سفيان –التي ما انقطعت بينه وبين خصومه، ساس بلاده بالحلم والروية، وعفا عند المقدرة، واتسع صدره للأحنف بن قيس، وأعطى الهدايا، وأعرض عن الجاهلين، فكسب قلوب العامة والخاصة، فجاءت سيرته عطرة، وشاد حضارة لا تفنى، وأرسى قواعد الدين الإسلامي الذي لا يتزعزع، "المسلم أخو المسلم" "كلكم لآدم وآدم من تراب" وجميعها أحاديث صحيحة وردت في الصحيحين

ووقع الخليفة الرشيد إلى صاحب خراسان، وقد بدا تذمر الناس عليه: داو جرحك لا يتسع، وقد يغني التلميح عن التصريح، فهذا التلميح يطلب به أمير المؤمنين من واليه في خراسان، أن يقوّم ما اعوجّ من حكمه، قبل أن يؤدي اعوجاجه هذا إلى كسره وعزله، فاستعار الجرح كناية عن الخلل في طريق الحكم، فإن ترك الجرح بدون دواء، تجثم والتهب وتسبب بالتسمم لسائر أعضاء الجسم، فيهزل ويمرض وربما يموت.

كذلك فإن الحكم يكون بالعدل والتسامح والحزم بدون شدة، ولين بدون ضعف، فأي خلل بهذا الدستور، يختل التوازن بهذا الحكم، فإن اختل توازن الحكم اعتلت صحته وبالتالي تتسع دائرة العصيان عليه، فإذا هي ثورة جامحة، تتقد وتحرق بنيرانها الحاكم، والأبرياء من الناس. هذه وصية أمير، هي كالدواء لداء إن لم يعالج استفحل وفتك بأهله. ووقع الخليفة المأمون –المشهور بالعلم والفصاحة- التوقيع السابق في قصة عامل كثرت منه الشكوى، والمأمون بهذا التوقيع يذكر عامله بما بلغه من كثرة الشاكين وقلة الراضين عنه، فإن كثرت الشكوى على الولاة دلت على أنه غير كفؤ للولاية، والأجدر به أن يعتذر عن مواصلة الحكم. فكثرة الشكاوي تدل على كثرة المظالم للرعية، وكما أن المبايعة علامة الرضى، فإن عدم الرضى يدل على عدم مبايعة الناس وموافقتهم لذلك الوالي، ومع كثرة الشكاوي قل عدد المبايعين والراضين عن ذلك الحاكم، فجاء القول الفصل من أمير المؤمنين "كثر شاكوك..وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وأما اعتزلت". فهذه إشارة من أمير المؤمنين، الخليفة المأمون إلى عامله، وتحذير له بأن يعتدل، أي يقيم العدل، أو عليه أن يعتزل ويترك الحكم، فوضعه أمام اختيارين إما الاعتدال أو الاعتزال، مصداقاً

لقوله تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" المائدة 44" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون" المائدة 45" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون" المائدة 47 وقوله تعالى: "وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون" صدق الله العظيم. المائدة 49 ووقع الخليفة المأمون في كتاب لعمه "إبراهيم بن المهدي" الذي رجع إلى طاعته بعد أن أعلن العصيان عليه، وطمع في ولاية خراسان، بعد مقتل أبي مسلم الخراساني، فخاف أن يلقى مصير أبي مسلم، إن تمادى في غيه وعصيانه، فكتب إلى ابن أخيه أمير المؤمنين."ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون" المائدة 56. ثم أعلن توبته. فكتب إليه المأمون "القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله".. ثم طلب منه أن يتلو هذه الآية:"فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فإخوانكم في الدين، ونفصل الآيات لقوم يعلمون" صدق الله العظيم.التوبة 11

وقع الخليفة المأمون كتاباً لوزيره الفضل بن سهل، في قصة متظلم بقوله: "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين" الروم47 وهذا الاقتباس من القرآن الكريم يدل على سعة في العلم، والتفقه في الدين.. كما ويدل على أن الخليفة في العصور الإسلامية الذهبية، كان واعياً لكل ما يدور في بلاده، فلا يترك الحبل على غاربه، ولا يتوقع داخل قصره، مهملاً شؤون دولته وتاركاً لبطانته أن تسيد وتميد في البلاد متمثلاً بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه "والله لو أن بغلة في أرض العراق عثرتْ، لسئلت عنها أمام الله" .

شخصية كاتب التوقيعات

في هذه البيئة الفنية الخصبة نمت و ازدهرت التوقيعات[40] ، وأسس لها ديوان خاص سمي بديوان التوقيعات، وأسند العملُ فيه إلى بلغاء الأدباء والكتاب ممن استطارت شهرتهم في الآفاق، وعرفوا ببلاغة القول، وشدة العارضة، وحسن التأتي للأمور، والمعرفة بمقاصد الأحكام وتوجيه القضايا. يقول ابن خلدون (732 – 808هـ) في ذلك:

»واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرضُ في مجالس الملوك، ومقاصد

أحكامهم، مع ما تدعو إليه عِشْرة الملوك من القيام على الآداب، والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل، وتطبيــق مقاصد الكــلام مــن البلاغة وأسرارها « [41].

وكان للتوقيعات البليغة الموجزة رواج عند ناشئة الكتاب وطلاب الأدب، فأقبلوا عليها ينقلونها ويتبادلونها ويحفظونها، وينسجون على منوالها.

يقول ابن خلدون:

كان جعفر بن يحيى البرمكي يوقع القصص بين يدي الرشيد، ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها؛ للوقوف فيها على أساليب البلاغـة وفنونها؛ حـتى قيل: إنها كانت تباع كُلُّ قصة منها بدينار« [42]

وكان يقول لكُتّابه [43]: إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا .

وسبق أن بيّن لنا ابن خلدون في الحديث عن المعنى الاصطلاحي للتوقيع الكيفية التي تنم فيها التوقيعات في مجلس الخليفة أو السلطان. وكما بـرع العباسيون في فن التوقيعات كذلك برع فيها الأندلسيون[44] ، ولا سيما بعد استقرار دولتهم، وأخذهم بأسباب المدنية والحضارة. والتوقيعات عند الأندلسيين في حاجة إلى بحث مستقل، فعسى أن أوفق إلى ذلك.

معايير التوقيع الأدبي

ليس كل توقيع يصلح أن يكون توقيعًا أدبيًا، وإنما يشترط في التوقيع لكي يكون كذلك الشروط التالية:

1- الإيجاز، وهو أن تكون ألفاظه قليلة معدودة ذات معانٍ واسعة.

وقد بالغ بعض الكتاب والأدباء في أيجاز التوقيع؛ حتى إن بعضهم اقتصر في بعض توقيعاته على حرف، أو نقطة. ذُكرَ أن الصاحب بن عباد الوزير الأديب المؤلف وقّع في رقعة بألف، وفي أخرى بنقطة، وذلك أنه التمس منه بعض السائلين شيئًا من مال، ثم كتب في آخر رقعته » فإن رأى مولانا أن يَفْعَلَ ذلك فَعَل « ، فوقع الصاحبُ قبل (فَعَل) ألفًا، فصار (أفعلُ). وأما النقطة فإنه وضعها في رقعة على لفظة (يفعل)، فنقط الياء من فوقها فصارت نونًا [45] .

ومما لا شك فيه أن ما فعله الصاحب يعتبر من التوقيعات المستظرفة المستملحة، وإن كان يظهر توقيعه مصطنعا لا بلاغة فيه.

1- البلاغة، وهو أن يكون التوقيع مناسبًا للحالة، أو القضية التي قيل فيها.

2- الإقناع: وذلك أن يشتمل التوقيع على وضوح الحجة وسلامتها ما يدفع الخصم إلى التسليم، ومن قوة المنطق وبراعته ما يقطع على صاحب الطلب عودة المراجعة.

ومن التوقيعات التي توافرت فيها الشروط الثلاثة ما وقع به عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي لعامله بحمص في الشام حينما كتب إليه أن مدينته تحتاج إلى بناء حصن لحمايتها من الأعداء: » حصنها بالعدل والسلام «[46].

وكذلك ما وقع به أبو جعفر المنصور حين كتب إليه عامله بمصر يذكر نقصان النيل » طهر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد «[47].

ومن التوقيعات المستحسنة ما كتبه يحيى بن خالد البرمكي في الاستبطاء والاقتضاء: » في شكر ما تقدم من إحسانك شاغلٌ عن استبطاءِ ما تأخر منه «[48].

أثر التوقيعات في السياسة والأدب

أسهمت التوقيعات الأدبية منذ أبكر عصورها في توجيه السياسة العامة للدولة الإسلامية، في عصر صدر الإسلام، ودولة بني أمية، ودولة العباسيين، وكان الخلفاء في أكثر الأحايين هم الذين يتولون توجيه ما يرد إليهم من رقاع أو خطابات أو معاملات كما نسميها بلغة عصرنا، وكان التوجيه في حد ذاته توقيعًا أدبيًا موجزًا يتضمن الرأي، أو ما يجب إجراؤه، ويكون التوجيه والتوقيع إلى بعض الكتاب البلغاء تحت إشرافهم في بعض الأحيان، وكان في ذلك كله ثروة لا تقدر بثمن في بناء الدولة وسياسة الرعية، وإغناء التاريخ بالنافع المفيد، وإثراء الأدب والفكر، فالتوقيع يحمل رأيًا صائبًا، أو فكرة جديدة، أو حكمة بالغة، أو توجيهًا سديدًا. ويحرص كاتب التوقيع أن يكون توقيعه بليغًا مؤثرًا موجزًا، يعرضه في كلمات قليلة. وهذا أتاح للأدب العربي أن يظفر بطائفة من التعبيرات الأدبية الراقية، تضم إلى ما أثر عن العرب من حكم وأمثال وأقوال بليغة.

والذي جعل للتوقيعات هذه القيمة السياسية هو أنها ارتبطت منذ نشأتها بدواوين الخلفاء والوزراء، وكانت إحدى الوسائل المباشرة مثلها مثل الرسائل والخطب – لتوجيه السياسة العامة للدولة، وتزويد الولاة والقواد في ولاياتهم ومواقع حروبهم بالنصائح والإجراءات المناسبة؛ فكل توقيع يوقعه الخليفة إلى والٍ أو وزير أو قائد يتضمن توجيهًا ذا علاقة بسياسة الدولة. من ذلك ما وقع به المأمون في قصة متظلم من حميد الطوسي [49] أحد قواده : » يا أبا حامد إلا تتكل على حسن رأيي فيك؛ فإنك وأحد

رعيتي عندي في الحق سواء[50] وما وقّع به إلى أحد عماله، وقد شكاه أهل عمله: إن آثرتَ العدل حصلت على السلامة، فانصف رعيتك من هذه الظَّلامة [51] .والتوقيعان يحثان على وجوب العدل بين الناس في الحقوق والمعاملات.

المراجع والمصادر

1. الدَّبرُ: بفتح الدال والباء: قروح تصيب الإبل في ظهورها من جراء الحمل أو القتب.
2. زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن اليُوسي: 220/2، واللسان والتاج (وقع)، وتاريخ اللغة العربية، لجرجي زيدان ص : 25 مطبعة الهلال بمصر، عام: 1904م.
3. زهر الأكم في الأمثال والحكم: 220/2، والتاج (وقع).
4. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: 196/1. والقول من غير عزو في اللسان (وقع).
5. البيت في ديوانه: 786، والأساس (سقط)، ووردت الكلمة بهذا المعنى في أكثر من موضع في شعره. يقال: تذاكرنا سِقَاط الحديث، وساقطهم أحسن الحديث، وهو أن يحادثهم شيئًا بعد شيء. وسقاط الحديث: أن يتحدث الواحد وينصت له الآخر، فإذا سكت تحدث الساكت. الأساس وشرح الديوان.
6. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: 196/1.
7. تهذيب اللغة (وقع) : 35/3 – 36، واللسان (وقع).
8. انظر: تاريخ اللغة العربية، ص: 25.
9. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: 195/1.
10. المقدمة ص:681، تحقيق: د. علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثانية: 1981.
11. انظر من صبح الأعشى : 292/10-467، 33/11-425، 36/12-482، 13/13-46 وراجع فهارس الكتاب التي أعدها وصنفها محمد قنديل البقلي ص: 12-29.
12. تاريخ اللغة العربية، ص: 25.
13. راجع المثال والتوقيع في : إحكام صنعة الكلام، للكلاعي:162-163، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت 1966، والمستطرف: 67/2، وترجمة المهلبي في وفيات الأعيان: 124/2-127، وفوات الوفيات: 353/1-357.
14. ترجمته في وفيات الأعيان : 174/1-177.
15. قيل: إنه أبو عبدالله الصوفي، وقيل: أبو الحسين العسقلاني، وفيات الأعيان:124/2.
16. تنازعه عدد من شعراء العصر العباسي، منهم البحتري ديوانه : 2684/5، وشرح المضنون به على غير أهله : 223، وانظر مزيد تخريج له في حاشية الديوان، وحاشية كتاب الآداب:49.
17. سورة البقرة، الآية: [261].
18. أورد القصة موجزة القلقشندي في صبح الأعشى:41/1.

19. العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وآخرين: 2/.212
20. سورة الأعراف، الآية: [199].
21. تحفة الوزراء المنسوب للثعالبي، 148، ت/ حبيب علي الراوي، و د. ابتسام مرهون الصفار، بغداد: 1977م.
22. العقد الفريد: 4/.208
23. البيت لجرير، ديوانه: 384، بشرح الصاوي، واللسان والتاج (ربع). مربع: لقب لرواية جرير، واسمه وعوعة بن سعيد بن قرط بن كعب بن عبد بن أبي بكر بن كلاب، وكان الفرزدق قد حلف ليقتلنه. انظر التاج، وحاشية شرح الديوان.
24. إحكام صنعة الكلام: .164
25. شرح ديوانه: 70/4، ط البرقوقي. المشرفية: السيوف. القنا: الرماح. الخميس: الجيش. العرمرم: الكثير.
26. العقد الفريد: 4/.206
27. مجمع الأمثال للميداني: 442/2، ط محمد أبو الفضل إبراهيم، الحلبي، القاهرة.
28. العقد الفريد: 4/.210
29. المصدر السابق: 4/.211
30. المصدر نفسه: 4/.216
31. تحفة الوزراء: .146
32. المصدر السابق: 147، والعقد الفريد: 4/.219
33. العقد الفريد: 4/.157
34. خاص الخاص، للثعالبي: .269
35. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، لشوقي ضيف: .489
36. انظر: العقد الفريد 211/4-216، وخاص الخاص: 276-.282
37. يتيمة الدهر: 197/3، وإحكام صنعة الكلام : 160-.161
38. يتيمة الدهر: 3/.197
39. المصدر نفسه. والتوقيع آية قرآنية. [الطور: 15].
40. الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر، 53-54، تحقيق: د. محمد حسين الزبيدي – دار الرشيد للنشر، بغداد : .1981
41. المقدمة: .681
42. المصدر نفسه: .681
43. البيان والتبيين: 115/1، والعقد الفريد: 272/2، والصناعتين: .179
44. التاج (وقع).
45. تحفة الوزراء:144، وإحكام صنعة الكلام: .161
46. خاص الخاص: .274
47. العقد الفريد: 4/.212
48. تحفة الوزراء: .145

49. هو أبو غانم حميد بن عبدالحميد الطوسي، من كبار قواد المأمون، وكان جبارًا، فيه قوة وبطش وإقدام، وكان المأمون يندبه للمهمات، مدحه بعض الشعراء. توفي عام 210هـ. وفيات الأعيان: 3/351-354 (ترجمة العكوك)، والنجوم الزاهرة: 2/190.
50. خاص الخاص: 280. وهكذا وردت كنيته في المصدر.
51. المصدر نفسه: 281.